عنوان الماستر: لغة عربية ودراسات قرآنية **الأستاذ عبد الجليل بن سالم**

المقياس: الإستشراق ومناهج المستشرقين

الإستشراق

لغة:

كلمة استشراق مشتقة من من مادة شرق. يقال شرقت الشمس إذ طلعت.

والجدير بالذكر أن الكلمة التي نبحث عن مفهومها اللغوي لم ترد في المعاجم العربية المختلفة. لكن يمكننا القول استنادا إلى قواعد الصرف والاشتقاق أن معنى استشرق أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم.

اصطلاحا:

في كتابه معجم متن اللغة. يعرف الشيخ أحمد رضا الاستشراق: هو طلب علوم الشرق ولغاتهم ويقال لمن يُعنى بذلك من علماء الفرنجة.

يقول بارت: "الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة".

مناهج المستشرقين في دراسة اللغة

المنهج التاريخي

سادت في القرن التاسع عشر نزعة علمية اهتمت بالتطّور المادي للعلوم، وتأثّر البحث اللغوي بهذه النزعة، وصار "الهدف الأسمى من دراسة الظواهر اللغوية الخروج بقوانين مُفسّرة، ولم يكن التفسير آنذاك إلاّ تاريخيا"، فسيطر الاتجاه التاريخي على البحث اللغوي. ومن العوامل المؤثرة في هذه السيطرة:

أ. الاعتراف بالعاميات لغات جديرة بالدراسة بشكلٍ متساوٍ مع اللغات الكلاسيكية .

ب. أثر الحركة الرومانسية في الاهتمام بالنصوص المُغرقة في القدم.

ومن أسس هذا المنهج:

1. دراسة حياة اللغة بحقبها المتعددة ؛ لذا سُمّيت الدراسات اللغوية على وفق هذا المنهج بالدراسات التتابعية أو الطولية.
2. دراسة تغيّرات مستويات اللغة كافّة، صوتية وصرفية وما إلى ذلك.
3. اهتمامه بدراسة اللغة المكتوبة -في الأغلب-؛ فهو يحصل على مادّته من الوثائق، والنقوش، والآثار، والمخطوطات.

وتتجلّى أهمية الدراسة اللغوية على وفق هذا المنهج في:

- كتابة تاريخ دقيق للغة عبر مراحلها الزمنية.
- كون هكذا دراسة واجباً علمياً، لأنّها توسّع آفاق فهم اللغة وتغيّرها.

العربية والمنهج التاريخي

يرى أحد الدارسين قلّة معرفة علماء العربية بالمنهج التاريخي وأدواته. وهذا إسقاط غير مقبول، فليس من المنهج بشيءٍ أن تُسقط المعارف الحديثة على تلك المرحلة، والأدق أن توصف علاقة علماء العربية (بالمنهج التاريخي) بعدم الاعتناء الكافي بتطوّر اللغة؛ لأن دواعي نشأة الدراسات اللغوية عند العرب شغلت علماء العربية عن تتبّع تطوّر العربية، بعرضها بأسلوب تعليمي ومنهج معياري في الغالب.وقد أشار برجشترلسر إلى سببين منعا علماء العربية من دراسة تطورها:" أولهما: مداومتهم على السؤال عن الجائز في اللغة وضدّه ، وعلى المنع عن كثير من العبارات. وهذا وان كان واجباً نافعاً، فهو عمل المعلّم لا العالِم... والسبب الثاني: اعتقاد علماء الشرق أن أكمل ما كانت عليه اللغة العربية، وأتقنه وأحسنه ما يوجد في الشعر القديم ." وقد زاد مستشرقون ألمان وغير ألمان عليها أسباباً أُخر منها:

أ. اعتماد الفصحى أنموذجاً للغة العلم ، والأدب ، والدين، فصارت مثلاً أعلى يقتفيه كل أديب، ممّا منع من الحصول على صورة واضحة عن تطوّر العربية ونموّها، وجعلها لا تنقسم على لهجات، على الرغم من اتّساع رقعتها خارج حدودها الجغرافية.
ب. إكثار العرب من وضع القواعد وتأليف المعاجم والتصدّي برسائل (لحن العامة) لمقاومة التغيّر اللغوي، ممّا أخّره وحصره بحدود ضيّقة، فلم تنشأ من العربية لهجات ترقى إلى مصاف اللغة، كما حصل مع نشأة اللغات الرومانسية من اللغة اللاتينية . والذي لم يُشر إليه المستشرقون أن اللغة العربية توافر لها ظرف خاص، وهو ارتباطها بالقرآن الكريم، وتدوين التراث العربي والإسلامي بها، ولولاهما، لأمست العربية لغة أثرية.

إنّ ما تقدّم من أسباب، خلق صعوبة في دراسة التغيّر اللغوي للعربية، أشار إليها أكثر من دارس.

ولكن هذه الصعوبة، لا تُثني الدارسين عن التنويه بالدراسة التاريخية للعربية. وحاول برجشتراسر أن يُغري مستمعي محاضراته في هذه الدراسة، ويقلل من الردود العنيفة التي قد يُجابه بها، فيقول: "والنظر إلى اللسان العربي من الوجهة التاريخية، له فائدتان، أولهما واضحة، وهي إكمال معرفة اللغة العربية وشؤونها، والأخرى هي: التوصل إلى معرفة طرائق علم اللغة الغربي... وغرضنا الأهم في هذا الدرس، أن نسهّل تفهّم معنى علم اللغة التاريخي بواسطة النظر إلى اللغة العربية". إن دراسة العربية بهذا المنهج يُعد ملمحاً من ملامح دراسات المستشرقين الألمان، ولاسيما إذا عُلم أن الدراسة التاريخية للغات هي التقليد الأبرز في المدرسة اللغوية الألمانية. واصطفى الباحث ثلاثاً من القضايا اللغوية التي وردت في مؤلفات المستشرقين الألمان، هي: الأسلوب المُولد، والتغيّر اللغوي، والمعجم التاريخي.

الأسلوب المولّد

بدايته

من اليسير إدراك العلاقة بين الجذر (ولد) والمصطلح (مولّد)، فالفعل (ولد) من كلمات المشترك السامي، ومعناه واضح في المعجم إلى الحد الذي لم يذكره الجوهري (ت 393 هـ) في صحاحه. وفي البدء كان "المولّد: المُحدَث من كل شيء...". ثمّ تخصص في دلالته، فصار "المولّد من الكلام مولّداً إذا استحدثوه، ولو لم يكن من كلامهم فيما مضى". إن ما يربط المعنيين: اللغوي والاصطلاحي هو الحدوث الجديد، ثمّ انتقل (المولّد) من دلالته على جنس من الكلام، إلى طبقة من الشعراء اختلطت دماؤهم بأصول غير عربية، ولا يُحتج بشعرهم، مثل: بشّار بن بُرد وأبي نواس وسواهما، حتى قال الأصمعي (ت 217 هـ) قولته الشهيرة: " خُتم .(الشعر بإبراهيم بن هرمة، وهو آخر الحُجج".

يستعمل يوهان فك مصطلح (العربية المولّدة) ، والباحث يرتضي مصطلح (الأسلوب المولّد) في العربية. يُبكّر يوهان في تحديد بداية (الأسلوب المولّد) ، فتارةً يُحدّده بانتقال " العربية بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرةً عن طرق الغزوات الكبرى في العهد الإسلامي إلى خارج حدودها القديمة في مواطن لغوية أجنبية ". وتارةً أخرى يؤخّرها إلى

النصف الثاني من القرن الأول للهجرة، ثمّ يرّد انتشاره إلى القرن الثاني. أمّا علماء العربية القدماء، ونحوٌ من المحدثين، فيذهبون مذاهب شتّى:

1. جعل علماء العربية منتصف القرن الثاني للحواضر، ومنتصف القرن الرابع للبوادي، تحديداً زمنياً ومكانياً لمن لا يحتج بشعرهم من المولّدين.
2. حدّده دوزي بنهاية القرن الأول للهجرة
3. أرجع شبيتالر (الأدب المولّد) إلى العصر الجاهلي وما قبله
4. ورآه سامي سعيد الأحمد بدأ منذ العصر العباسي
5. ذهب حلمي خليل إلى ظهوره بعد تحوّل العربية من لغة بدوية إلى لغة للعلوم والفنون بعد ازدياد الترجمة إليها.
6. وحدّده أحمد محمد قدّور البداية الواضحة له إلى رأس المائة الثانية

ويرى الباحث أن تحديد بدايات) الأسلوب المولّد (وانتشاره بمجيء الدولة العباسية مقبول، لأسباب منها:

أ. أنه يتّفق في مجمله مع ما أجمع عليه علماء العربية.

ب.زوال الدولة الأموية، الراعية لعروبة الدولة، والعصبية القومية واللغوية.

ت.انفتاح العباسيين على القوميات الأخرى، ممّا أدّى إلى تغلغلها في مفاصل الدولة، فضلاً عن ازدياد الترجمة، وازدهار العلوم العقلية والطبيعية.

ث.ظهور أدباء من غير العرب، برعوا في فنون الشعر وأساليب النثر، مثل عبد الحميد الكاتب (ت 132 هـ)، وابن المقفّع (ت 142 هـ)، وبشّار (ت 167 هـ)، وأبي نواس (ت 199 هـ) وسواهم.

أمّا تحديد يوهان فك لبدايات (الأسلوب المولّد) في ما بعد وفاة الرسول (ص)، فلا يرتضيه الباحث وغيره، لأن:

- التطور اللغوي بطيء ومتدرّج، فلا تكفي سنوات قليلة لظهوره، ولاسيما إذا علمنا أن علماء العربية قد أجمعوا على ربط (المولّد) بظهور استعمالات لغوية لدى الأجيال الناشئة المختلطة أعراقُها.
- بدأ ظهور الأسلوب المولّد حين " لم تبق العربية لغة العرب وحدهم، وإنما أصبحت لغة البلدان المفتوحة، وقد كان لمخالطة الشعوب المغلوبة التي بدأت تتكلّم اللغة العربية وتلحن في كلامها، أثر في العرب أنفسهم".
- ممّا يُعزز تأخر ظهور (الأسلوب المولّد)، انتشاره – كما يرى يوهان فك نفسه– وتوطّده في نهاية القرن الثالث للهجرة.

أسباب نشأته

أولا: استعمال العربية من غير العرب، ونقصد منهم الأدباء والمولّدين، لا عامّة الناس، فانتشرت أساليبهم، كنثر عبد الحميد الكاتب، وابن المقفّع، وشعر بشّار، فشاع استعمال الأساليب التي تحبذها حياة المدن المستقرة، فاختلف الأسلوب المولد عن الأسلوب العربي القديم في طبيعته لا في تركيبه. فنثر ابن المقفع– مثالا – كان يلتزم الإعراب، لكن أسلوبه تخلّى عن الصنعة اللفظية ووشي الكلام، وتجنّب التعبيرات الموروثة، مثل صيغ التعجّب والاستغاثة، وتفادى الجمل الفرعية، مثل: المعترضة، والدعائية، واتّسمت جمله بالوضوح ، والقصر ، والت ا زم الوصف الموضوعي ، والبُعد عن الخيال، ولعّل لتمكّنه من اللغتين: الفارسية والعربية، بحسب ما ورد في ترجمته، أثرا في خصائص أسلوبه. وبهذا أكثرَ الأسلوب المولد من استعمال تراكيب وأساليب جديدة من دون مخالفة لقواعد الفصحى.

ثانياً: التقاء العربية باللغات الأخرى ولا سيما اللغة الفارسية. وقد خرجت العربية من صراعها اللغوي مع الفارسية، أن تجنّبت كثيرا ممّا يعوق نموّها وانتشارها، وصارت أكثر حيوية واستيعاباً لما تجدّد من مظاهر حضارية، ولاسيما أن الانتقال من البداوة إلى المدنية ، أحوجَ المجتمع آنذاك إلى البحث "عن مواد جديدة، وصور للتعبير جديدة، تكون أكثر ملائمة

لأحواله الجديدة وما فيها من مجالات عقلية أبعد شأواً. وقد زاد هذه .(الميول قوةً، زيادة امتزاج العناصر الفارسية والآرامية وغيرها بالحياة العربية الاجتماعية والأدبية.

ثالثاً: تحوّل العربية من لغة حديث، وفطرة وطبع إلى لغة كتابة تُتعلّم وتُكتسب بالقراءة، ولاسيما بعد اتّخاذها من لدن (الموالي) لغة لهم، وصار تعلّم النحو في بداية القرن الثالث للهجرة لدواعٍ إدارية وسياسية مظهرا بارزا، و" كانوا يبذلون اجتهاداً عظيماً في دراستها ".

ربعاً: ومن أسباب نشأة (الأسلوب المولّد) ضعف الدولة العباسية، وغلبة غير العرب كالترك، والفرس على مقاليد السلطة. وقد أشار يوهان فك أكثر من مرة إلى ارتباط العربية بقوة الدولة العباسية أو ضعفها، فحين تقوى الدولة تتعزّز الفصحى، وحين تنحلّ تبدأ الازدواجية اللغوية بالظهور، والشيوع.

إن مغادرة اللغة لموطنها الأصلي وانتشارها وتوسّعها يعرّضها للانقسام، ولكن هذا الأمر مع العربية مختلف؛ لأن "تشّعب اللغة الأصلية إلى لهجات ليس نتيجة حتمية من نتائج الانتشار في المكان، بل إن ضعف الاحتكاك هو الذي يولّد التمايز اللغوي، وليس التباعد المكاني في حد ذاته"، والعربية لم تغب عن متكلميها أو يقل احتكاكهم بها وهم خارج أرضهم، فالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي، وبقية العلوم الإسلامية مصادر بقيت تشدّ العربي إلى دينه ولغته.

مصادره

ومن أهم مصادر (الأسلوب المولّد):

1. لغة الأقاليم الإسلامية.
2. النصوص النثرية للتراث العربي: الأدبي والجغرافي والتاريخي، مثل مؤلفات الجاحظ، وابن المقفّع، وتاريخ الطبري (ت 310 هـ)، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ت 356 هـ)، وكتب الجغرافيين العرب، و(ألف ليلة وليلة) وغيرها .

3. دواوين الشعراء المحدثين، مثل: بشار، وأبي نواس، وأبي العتاهية (ت 211 هـ).

4. كتابات غير المسلمين وترجماتهم، مثل حنين بن إسحاق (ت 260 هـ).

مفهومه

إن مفهوم (العربية المولّدة) عند يوهان فك أو كما يُسمّيه الباحث (الأسلوب المولّد) يخلط بين مستويات واستعمالات لغوية عدّة، منها اللحن، والعاميات، والرطانات الأعجمية، فضلاً عن التجديد الأسلوبي المقبول أدبياً، ويقول يوهان عن (العربية المولّدة) للمسلمين الجدد، بأنها استعانت "بأبسط وسائل التعبير اللغوي، فبسّطت المحصول الصوتي، وصوغ القواعد اللغوية، ونظام تركيب الجملة، ومحيط المفردات، وتنازلت عن التصرّف الإعرابي، واستغنت بذلك عن مراعاة أحوال الكلمة وتصريفها، كما ضحّت بالفرق بين الأجناس. (النحوية، واكتفت ببعض القواعد القليلة الثابتة عن مواقع الكلمات في الجملة للتعبير عن علاقات التركيب" والباحث، مسبوق بدارسين اثنين، لا يوافق على هذا المفهوم الذي تتداخل فيه مستويات الاستعمال، وعلى سبيل المثال، فقد جعل يوهان من سمات (العربية المولّدة) " التحرّر من الإعراب قرينة أكيدة على العربية المولّدة...". في حين أنه لا عربية توجد من غير مراعاة الإعراب، ولولا أنّه من الخصائص البنيوية للعربية الفصحى، لما ظلّ من غير أن يعتوره تطوّر في قواعده منذ العصر الجاهلي إلى الآن. ومثال آخر على اختلاط مفهوم (العربية المولّدة) عند يوهان ما ذكره في الإبدال الصوتي، فلقد خلط بين إبدال صوتي مرجعه اختلاف اللهجات العربية القديمة، مثل: تسهيل الهمزة وتحقيقها ، وتفخيم السين صاداً والاختلاف في نطق الضاد. لقد خلط بين هذا الإبدال اللهجي، والانحرافات الصوتية التي كانت تجري على ألسنة (الموالي) في أوائل إسلامهم، مثل: إبدال العين همزة ، والحاء هاءً، والقاف كافاً والزاي سيناً ،والذال دالاً، والأصوات المطبقة صارت تُبدّل إلى نظائرها المُرقّقة. إن الباحث يتّفق مع حلمي خليل على أن " العربية المولّدة بالخصائص التي ذكرها يوهان فك... هي العامية بعينها...". ولهذا سيعرض الباحث عن الأمثلة التي ذكرها يوهان والتي

تمثّل اللحن والعامية والرطانات الأعجمية، ولا يناقش من أمثلته إلاّ ما يُفهم منه التغيّر والتجديد الأسلوبي اللذين أحدثهما الأدباء المحدثون (المولدون)، كما سيأتي في موضوع (التغيّر اللغوي).

إن التغيّرات التي طالت الفصحى لم تُبرز لنا (عربية مولّدة)، بل (أسلوباً مولّداً)، وبهذا الشأن يقول أحمد محمد قدّور عن الفصحى بأنها: " تعرّضت بعد القرن الأول لضروب من (المولّد) على صعيد زيادة الثروة اللفظية والتغيّر الدلالي والتجديد الأسلوبي مع بقاء الأنظمة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمعجمية مستمرّة لتُشكّل الملامح المميّزة للاستعمال الفصيح أدباً وحديثاً، مُشافهة ومُكاتبة. وعندما نقول: إنها فُصحى تعرّضت للمولّد، نُخرج سائر المستويات الأخرى كاللهجات العامية والرطانات الأعجمية التي بدأت زمن الفتوحات ثمّ توسّعت بعدئذ " (2). إن التغيّرات اللغوية غير المقبولة هي التي تقود إلى (العاميّات). إن ممّا يرفضه الباحث هو جعل يوهان (اللحن) ، و(العاميّات) ، و(كلام الأعاجم) عربية مولّدة. في حين أن (الأسلوب المولّد) الذي كتب به بشّار، وأبو نواس، وأبو تمّام، والمتنبّي شعرهم يُجاري الفصحى في أكثر خصائصها.

إن خلط يوهان فك في مفهوم (العربية المولّدة) يُردّ إلى سببين:

الأول: تأثّره بمفهوم علماء العربية في عدّ كل تغيّر لحناً أو مولداً، فثعلب (ت 291 ه) حين: " سُئل عن التغيير، فقال: هو كل شيء مولد..."، ففهم يوهان فك أن كل تغيّر لغوي مولّد، لذا جمع تحت عنوان (العربية المولدة) أكثر مظاهر التغيّر اللغوي من: لحن ، ومولد ، وعامي ، ورطانة أعجمية ، وتحريف وتصحيف وما إلى ذلك.

الثاني: تأثّره بالنظرية اللغوية الغربية التي تُقيم وزناً لكل تغيّر لغوي، وتُدخله الاستعمال معترفة به؛ ومن ثمّ أسقط يوهان مفهومي (القِدم) ، و(المعاصرة)، وهما من إسهامات علم اللغة التاريخي، فنشأت عنده وعند غيره مصطلحات، مثل: العربية الكلاسيكية ، والوسيطة

أو المولدة والمعاصرة. إن هذا الإسقاط غير موضوعي، بل لا يصح " تشبيه العربية الفصحى باللغات التاريخية المندثرة ؛ لأنها مع ما اعتراها من ضيق التداول، بقيت لغة مسموعة ومقروءة حتى في أحلك الظروف التي مرّت بها ". ولا سيما بعد تأكيدات الدارسين بأن للعربية " وضعاً خاصاً يميّزها في تطورها عن اللغات الأخرى بحكم ارتباطها بالقرآن الكريم...". فالعربية لا تشبه اللغات الأوربية التي كانت لهجات لاتينية، ثمّ تطوّرت إلى لهجات منفصلة، وكذلك لا تصلح العاميات العربية الحديثة أن يكّن بنات ليرثنَ الفصحى. وهذا ما دعا ف.فيشر إلى التراجع عن تقسيم العربية على فصحى: كلاسيكية، ومولدة، ومعاصرة، وتبنّي " مصطلح (العربية الكلاسيكية) ليس اعتباره اصطلاحاً دالاً على تاريخ اللغة، بل بوصفه إشارة إلى واقع اجتماعي لغوي...".

إن (الأسلوب المولّد) ممّا لا يُستغنى عنه في العربية الفصحى وتاريخها ؛ لأنه:

1. أسهم في التعبير عن متطلبات الحياة الجديدة.

2. لم يخرج على قواعد العربية الفصحى في عمومها.

3. أمدّ هذا الأسلوب العربية بثروة لفظية- دلالية، وأسلوبية، ممّا يجعل الباحث مُستغرباً من رأي نولدكه بفقر هذا الأسلوب إلى المفردات.